فى مهده ، ورجاء أن يجعله متنفساً فى أرض حرة تحضنه ، وأن يجد له قوة تعينه ، حتى يحين الأجل المضروب ، ولكل أجل كتاب

هاجر وتم له ما أراد ، إذ فتح الله له فتحاً مبينا وأعز دينه وأعلى كلمته ونصر جنده ، ودانت له تلك القبائل التى ناصبته العداء ، ولم يرض إلا بعد أن رضى الحق وانتصر ، وبعد أن انتصر غفر . فهو خادم الحق وأمينه ، وناصره ومعينه ، لا يرى أن نفسه له ، ولا أن أهله له ، ولا أن شيئاً فى الحياة له ، بل كل شيء عنده وفى مقدوره للحق وفى سبيل الحق . ولم يكن السيف فى يده إلا مشرط الجراح يبتر به ما فسد من الأعضاء ، ولم تكن الأسنة إلا الإبر التى ينزل بها الطبيب مكان الداء ليخرج أذاه . وليس بدعاً من الحوادث حادث الهجرة وما لابسه إذا عُرض على مقاييس العقول واعتبر الناس بسنن الاجتماع وهديه . ولا تزال هذه السنن مستمرة فى هذه الحياة ؛ ولا زالت تعمل عملها وتحدث أثرها . والعاقل من يعتبر . « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »

وقد سار النبي صلى الله عليه وسلم على هذه السنن ، وامتاز بأكمل ما امتازبه الأنبياء وكبار الدعاة إلى الحق من اليقظة والحكمة ، وتخير الأوقات والأمكنة ، واختيار الأصحاب والأنصار . ولم ير الاكتفاء بالحجة والبرهان فى مواضع لا تنفع فيها الحجة ولا يقنع البرهان ، بل أعمل الحيلة وأدار الرأى وطلب القوة فى مظانها . لذلك كانت الهجرة ، وبذلك أدرك ما أراد . فظهر الإسلام وبسط ظله على أمم قوية كثيرة العدد والعُدد ، وحوّل أولئك الأميين إلى أئمة هدى وولاة عدل وفقهاء نفس وساسة يفخر التاريخ بهم ، وعلماء تروى آثارهم ويتحدث الناس بطيب أخبارهم ، وأساة للإنسانية وجروحها تتفجر منهم ينابيع الرحمة ويضمون نظم الإصلاح وقواعد الاجتماع . رفعوا قدر العلم بعد أن أنكروه ، وجعلوا العقل هادياً ومرشداً ، والقرآن إماماً . لم يخونوا أمانات الله ورسوله فأحياهم الله حياة طيبة ، وأعدّ لهم مكان صدق عند مليك مقتدر

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون . يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون »

محمد مصطفى المراغى

البحث عن غد

للأستاذ عباس محمود العقاد

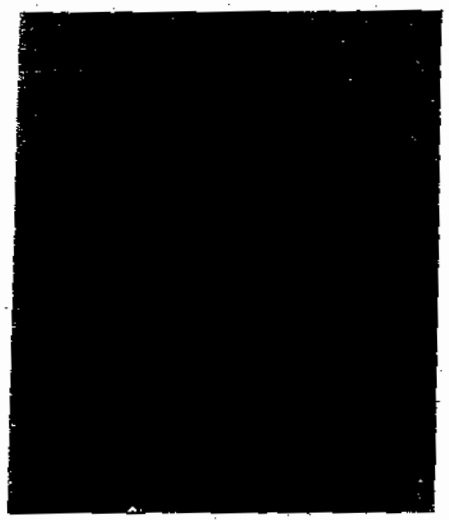

الغربيون اليوم معنيون بالبحث فى مسائل الشرق من جوانبه كافة : من جانب السياسة ، لأن نهضة شعوبه تضطرهم إلى حسبان حسابه والعدول عن خطة استغلاله والسيطرة عليه ؛ ومن جانب الدين ، لأنهم حائرون فى شئونهم الروحية يلتمسون الهداية من مهبط الأديان ، أو يقابلون بين سلطان الدين عليه وسلطان الآراء الحديثة عليهم ؛ ومن جانب التجارة ، لأن العلاقات التجارية بين الدول الكبرى لا تستغنى عن أسواق الشرق ومنابع الثروة فيه ؛ ومن جانب السياحة والرحلة واستكشاف مواقع التاريخ القديم ، وكل جانب تتحول إليه عناية الباحثين فى مسألة عامة

ومن الباحثين الصحفيين المشغوفين بالمسائل الروحية « روم لاندو » صاحب كتاب « الله محجة مناصراتى » ، وصاحب هذا الكتاب الذى عنوانه « البحث عن غد » ، وموضوعه استطلاع أحوال الشرق القريب من جانب الدين والنهضة النفسية إن صح أن نطلق عليها هذا الاسم تمييزاً لها من النهضة العلمية البحت والنهضة الصناعية الاجتماعية التى تقابل نظيرتها فى الأقطار الغربية

حضر إلى مصر وتحدث فيها إلى رجالات الفكر والسياسة ولخص هذه الأحاديث فى كتابه ، وسنعرض لها جميعاً ، ونبدأ بنقل حديثه مع رئيسى الجامعتين الأزهرية والمصرية ، حيث قال بعد تمهيد طويل للحديث مع صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ

(1) Search for Tomorrow, by Rom Landau

مصطفى المراغى وقد زاره فى بيته بحلوان :

« سألنى : هل تبحث عن المسائل الدينية أو مسائل ما وراء الطبيعة ؟ ولما كان الفارق بين هذه وتلك ليس بالفارق العظيم فى نظرى أجبته بشئ من الزوغان : كلاهما ؛ إلا أننى أشد عناية بما وراء الطبيعة

فقال الشيخ العلامة : قليلة المحصول ، قليلة المحصول جداً

وكانت لهذه الكلمة دلالتها ، لأنها تشير إلى طبيعة الإسلام العملية كما تمثلت فى أكبر رعاته بين المصريين

ومع علمى ببعض العلم بأساليب المناقشة الشرقية لاحظت على الأستاذ المراغى أنه يتنحى عن الجواب في كثير من الأحيان ، وأن أسلوبه أسلوب رجال السياسة ؛ وناهيك بهم إذ يكونون شرقيين مع ذلك ، وعلى خبرة بالمواقف المعضلة ، وحرص من التورط في التصريح ، فهو فى البيئة الغالبة على فقهاء الإسلام لامراء

وعدت أقول : لقد سمعت أن الشبان عندكم يجنحون إلى نزعات « التفكير الحر » ويحاولون أن يزيدوا القرابة بين الدين والعلم . فهل صحيح ما سمعت ؟

فقال الشيخ : « لا أظن الشبان المصريين أقل تديناً اليوم من أمس ؛ إذ ليس فى القرآن ما يعارض الحقائق العلمية ، ولا تناقض بينهما فى شىء

وأردت أن أخوض فيما هو أصرح وأجرأ مما تقدم فسألت : ألا ترى أن العنصر الروحى — أو الغيبي المتصل بما وراء الطبيعة — هو أهم العناصر فى الديانات ؟

قال الشيخ فى سكينة ولطف : من ذا الذى يعلم كنه الله وكنه الروح ؟ إن بعض أساتذتنا يتحدثون عن المادة كأنها حقيقة ، وبعضهم يتحدثون عنها كأنها وهم أو فرض مفروض ؛ وليس من يعلم الصواب علم اليقين ، فإن القرآن لا يفصل بين القولين ، ولكنه يحكم حكمه فى أمور شتى كأمور الزواج والمواريث والمعاملات

فسألته : وماذا تقولون فى قبول العلماء لنظرية قدم المادة ؟

ولا ريب أن الأستاذ المراغى لم يكن يتوقع قط أننى علمت شيئاً عن هذه القضية ، إلا أنه لم يظهر الدهشة ، ولم يبد عليه إلا قليل من مفارقة السكينة التى لزمته حتى الساعة كأنها قناع لإخفاء ماوراءها من قلة الاكتراث . فقد انبعثت الحياة من خلالها وقال:

« إنك لم تقع على الخبر الصحيح فى هذه القضية ، فليس هناك إلا أن عالماً كتب رسالته فى علم الأصول ليعبر فيها عن رأيه وما انتهى إليه اجتهاده »

فبادرت قائلاً : ألم يكن صاحب الفضيلة وأعوانه من العلماء مرجع الامتحان فى هذه القضية ؟

فابتسم الشيخ المراغى وهو يقول : « إن رأياً كهذا قد كان يحسب من الزندقة قبل خمسين سنة ، وما كان أحد ليجسر على تقديمه فى جامعة إسلامية . فما أعظم التغير في أطوار الزمان ! نحن اليوم أدنى إلى الحرية والسماحة »

واستطرد الكاتب إلى أسئلة وأجوبة من هذا القبيل ، انتهى منها إلى المذاهب الاجتماعية والشطط فى الدعوات الفكرية ؛ وسجل رأى الشيخ الأكبر أن الوقاية من جميع ذلك إنما هى الدين وتعليم الإسلام على أصوله

* * *

أما حديثه مع صاحب المعالى أحمد لطفى السيد باشا فقد مهد له بوصف الأستاذ وملابسه الإفرنجية الأنيقة ومعيشته المصرية ، ثم استهله بهذا السؤال :

« ما هى أكبر رسالة ثقافية قامت مصر بأدائها فى رأيكم خلال القرون الأربعة التى خضعت فيها للحكومة التركية ؟ »

فأجاب وأصابعه النحيلة تعبث بحبات المسبحة العاجية :

« إنما هي عمل الجامع الأزهر فى جميع الكتب الفقهية »

فقلت : ألا ترون أن حصر رسالة ثقافية تؤديها الأمة فى عمل واحد لا يتجاوز جمع الموضوعات الفقهية خليق أن يشير إلى شيء من ضيق النطاق ؟

فرفع لطفى باشا حاجبيه هنيهة واضطرنى بذلك أن أعقب على ما أسلفت مستدركا :

« إن كثيراً من الغربيين يزعمون أن تفكير العرب تفكير « تجريدى » ... فإذا كانت العبقرية القومية لا تخرج فى مدى القرون الأربعة ثمرات ثقافية غير الفقه والشريعة فهذا الزعم ليس بالمخالف كل المخالفة للإنصاف فيما يلوح لأول نظرة »

فسألنى : ماذا تعنى بالتفكير التجريدى ؟

قلت : إن التفكير الانجليزى مثلاً واقعى مجار للحوادث ، لأنه يتناول كل حادثة كما تعرض فى حينها ، وهو من ثم تقبض

الفروض النظرية والمباحث الجدلية . أما تفكير العرب فهو رهن بالقواعد المرسومة والنظريات الملزمة ؛ ويلوح عليه أنه شبيه بهندسة البناء العربية ، لا يحتوى صورة من صورة الحياة الماثلة فى بنية الإنسان وملامح وجهه ، وكل ما فيه هندسة وتناسق خطوط ... »

قال لطفى باشا وهو يشفع كلامه بابتسامة معتذرة :

« آسف لأننى لا أستطيع مجاراتك فى حكمك . فالذى يبدو لى أن الفكر العربى أشد إيغالاً فى الواقعيات من الفكر الأوربى . وهذه شريعتنا الدينية التى استشهدت بها على نزعته التجريدية تتناول شؤون الحياة اليومية ولا تقتصر على مسائل اللاهوت والأخلاق كما هو الحال فى الشريعة المسيحية ؛ وهى تفيض بالوصايا فى أمور المعيشة والزواج والميراث وما شاكل ذلك . وأحسب أننا أقرب إلى معرفة الحقيقة حين ندرس « مخيلة » الأمة كما تتمثل فى ديانتها . فكيف ترى « المخيلة المسيحية » تتصور السماء والفردوس ؟ إن سماء المسيحيين هي نعيم غير ذى أشكال ، أو هى شىء لا يسعك أن تراه ولا تقع عليه العيون ، بل شىء لا يسعك أن تحيط به فى الخيال . أما المسلمون فكيف تراهم يتخيلون السماء ؟ إنها دار حقيقية فيها اللبن والعسل والمسجد ، وفيها الأزهار والأشجار والحور العين ، وهى كلها حقائق ومشاهدات ... أفليس هناك معنى ملحوظ لاتفاق المخيلة الدينية بين المسيحيين والمسلمين فى «ميدان سلبى» حين يتكلمون عن الجحيم؟ ففى هذا الميدان ترسم المسيحية نفسها صورة مشهودة هى صورة النيران والنفط الغالى وعذاب الأجساد

قال الكاتب : فأحجمت عن الجهر بملاحظة سنحت لى تلك اللحظة ، وفحواها أن المبالغة فى تمثيل الخيال تقترن عادة بالقصور فى ملكة البناء والانشاء الواقعية ، وآثرت أن أسأل :

ألا تزال الديانة قوة فعالة في الحياة المصرية ؟

فأجابنى الباشا : « فعالة على الأرجح فى عالم الاسلام أعظم من فعلها فى عالم المسيحية ، لأن شرائعنا كلها قائمة على القرآن ؛ ومن العسير فى البلاد الاسلامية أن تفصل بين الدين والحياة اليومية »

قلت : على أننى قد أخبرت أن الشبان المصريين يهجرون عقائد آبائهم جنوحاً منهم إلى البدع الغربية

قال : أعجب لو صح ذلك ... فلعلهم لا يغشون المساجد ولا يشهدون صلوات الجمع ، ولكنهم على الجملة متدينون ، وربما كان منهم أناس من الدارسين للفلاسفة الغربيين قد ألحدوا فى الدين إلا أنهم شذوذ قليل

فسألته : أيعنى المصريون عناية ما بما وراء الطبيعة أو بالأسرار الخفية والسبحات الصوفية ؟

قال : « ذلك نادر فى « فلسفتنا الحاضرة » . غير أن فلسفتنا وأدبنا لا يزالان فى مفتتح الحياة ؛ وينبغى ألا تنسى أن أربعة قرون من الحكم التركى قد عطلت ثقافتنا وتركتنا نحاول من جديد .

فانتقلت إلى حديث الجامعة العربية وسألته : « وهل بعد انقضاء السيادة التركية أو السيادة الانجليزية يهتم المصريون بالجامعة العربية ؟

فرد الباشا جازماً : أما سياسياً فلا ، لأن الفوارق بين الشعوب العربية المختلفة جد كبيرة ؛ أما من الوجهة الثقافية فهى ممكنة ، وهي على ازدياد فى جوانب الشرق الأدنى ؛ ولكنها ليست بالسياسية ، لأن الجامعة العربية من حيث هي نزعة سياسية اختراع نجم فى الصحافة الانجليزية على ما أذكر ، ولا يحضرنى اسم صاحبه وإن كنت أرجح أنه مراسل للتيمس كان يراسلها من النمسا قبل أربعين سنة

وتنقل الحديث فى بعض الموضوعات السياسية ثم سأل الكاتب : ما ظنك فى حقيقة ما يقال من أن الوطنية المصرية توسد ما بين المصريين وسائر العالم ، وتجتهد فى إبدال كل مصرى بكل أجنبى ؟ أتؤمن بامكان هذه العزلة ؟

قال الباشا : الحق أننى لا أومن بذلك ؛ ولعل محدثيك قد أخطأوا التقدير ، فان الوطنية عندنا لا تجور على الثقافة . ونحن إذا اكتفينا بمن هم عندنا من الأساتذة الأجانب فسبب ذلك قلة المال . إن الأستاذ الانجليزى يكلفنا من ثمانمائة إلى تسعمائة جنيه فى العام ، وليس ذلك بالميسور لنا إلا فيما ندر

وانتهى الحديث بعد تعقيب موجز فى هذا الموضوع ، وسنعود إلى سائر الأحاديث وإلى التعقيب عليها فى مقال تال

عباس محمود العقاد